بسم الله الرحمن الرحيم

٧٢ – سورة الجن

قال المهايمىّ : سميت بها لاشتمالها على تفاصيل أقوالهم فى تحسين الإيمان ، وتقبيح الكفر ، مع كون أقوالهم أشد تأثيرا فى قلوب العامة ، لتعظيمهم إياهم .

وهى مكية . وآيها ثمان وعشرون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا)

[٢] (يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ » أى لهذا القرآن الحكيم . والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط ـ كما فى (المجمل) ـ .

قال القاشانىّ : قد مرّ أن فى الوجود نفوساً أرضية قوية ، لا فى غلظ النفوس السبعية والبهيمية وكثافتها ، وقلة إدراكها ، ولا على هيآت النفوس الإنسانية واستعداداتها ، ليلزم تعلقها بالأجرام الكثيفة ، الغالب عليها الأرضية ، ولا فى صفاء النفوس المجردة ولطافتها لتتصل بالعالم العلوىّ ، وتتجرد متعلقةً بأجرام عنصرية لطيفة ، علبت عليها الهوائية أو النارية أو الدخانية ، على اختلاف أحوالها . سماها بعض الحكماء الصور المعلقة ، ولها علوم وإدراكات من جنس علومنا وإدراكاتنا . ولما كانت قريبة بالطبع إلى الملكوت السماوية ، أمكنها أن تتلقى من عالمها بعض الغيب ، فلا تستبعد أن ترتقى إلى أفق السماء ، فتسترق السمع من كلام الملائكة ، أى النفوس المجردة . ولما كانت أرضية ضعيفة بالنسبة إلى القوى السماوية ، تأثرت بتأثير تلك القوى ، فرجمت بتأثيرها عن بلوغ شأوها ، وإدراك مداها من العلوم . ولا ينكر أن تشتعل أجرامها الدخانية بأشعة الكواكب فتحترق وتهلك ، أو تزجر من الارتقاء إلى الأفق السماوى فتتسفل ، فإنها أمور ليست بخارجة عن الإمكان ، وقد أخبر عنها أهل الكشف والعيان ، الصادقون من الأنبياء والأولياء ، خصوصاً أكملهم نبيّنا محمداً ﷺ . انتهى .

وفى الآية ـ كما قال القاضى ـ دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام مارآهم، ولم يقرأعليهم، وإنما اتفق حضورهم فى بعض أوقات قراءته فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله .

« فَقَالُوٓاْ » أى لما رجعوا إلى قومهم « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا » قال المهايمى أى كتاباً جامعاً للحقائق الإلهية والكونية ، والأحكام والمواعظ ، وجميع ما يحتاج إليه فى أمر الدارين .

« عَجَبًا » أى غريباً ، لا تناسبه عبارة الخلق ، ولايدخل تحت قدرتهم .

« يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ » أى إلى الحق وسبيل الصواب « فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا » أى من خلقه ، فى العبادة معه .

تنبيهات

الأول ـ هذا المقام شبيه بقوله تعالى[1] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) الآية . وقد روى البخارى[2] عن ابن عباس قال . انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ! فرجعت الشياطين فقالوا : ما لكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب ! قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الأمر الذى حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ! قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا ! إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنزل الله عز وجل على نبيّه ﷺ : (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ) وإنما

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ـ سورة الجن .

أوحى إليه قول الجن . ورواه مسلم[1] أيضاً وزاد فى أوله : ماقرأ رسول ﷺ على الجن ولا رآهم ، انطلق . . . إلى آخره .

الثانى ـ قال الماوردىّ : ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن . قال : والإيمان يقع بأحد أمرين : إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز ، وشروط المعجزة ، فيقع له العلم بصدق الرسول. أو يكون عنده علم من الكتب الأولى ، فيها دلائل على أنه النبىّ المبشر به، وكلا الأمرين فى الجن محتمل . انتهى .

الثالث ـ قال الرازىّ : فى الآية فوائد :

إحداها ـ أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها ـ أن يعلم قريش أن الجن ، مع تمردهم ، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها ـ أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها ـ أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ، ويفهمون لغاتنا .

وخامسها ـ أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان .

وفى كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس . انتهى .

ولما سمعوا القرآن ، ووفِّقوا للتوحيد والإيمان ، تنبهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرة الجن من تشبيه الله بخلقه ، واتخاذه صاحبة وولداً ، فاستعظموه ، ونزهوه عنه ، فقالوا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا)

« وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا » أى تعالى ملكه وعظمته ، وصدق ربوبيته ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(١) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ١٤٩ (طبعتنا) .

قال ابن جرير [١]: الجَدُّ بمعنى الحظ . يقال : فلان ذو جَدّ فى هـذا الأمر إذا كان له حظ فيه ، وهو الذى يقال له بالفارسيّة (البخت) . والمعنى : أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية ، فلا تـكون له صاحبة ولا ولد ، لأن الصاحبة إنما تـكون للضعيف العاجز الذى تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها ، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذى يحدث منه الولد . فقال النفر من الجن : علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو وقاع شىء يكون منه ولد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا)

[٥] (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا)

[٦] (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

« وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا » يعنون به مضلّهم ومغويهم « عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا » أى قولا ذا شطط . صفة لقول مقدر بتقدير مضاف . أو جعل عين الشطط مبالغة فيه . وأصله مجاوزة الحدّ . والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى . « وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى فى نسبة ما ليس بحق ، إليه سبحانه . وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه فى ذلك ، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله ، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه . « وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا » روى ابن جرير [٢] عن ابن عباس قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادى ، فزادهم ذلك إثماً . ففى الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فى الجاهلية من أن الوديان مقر الجن وأن رؤساءها تحميهم منهم . وهكذا قال إبراهيم : كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا : نعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ ما فيه ، فتقول الجن : ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرًّا ولا نفعاً .

وقال الربيع بن أنس : كانوا يقولون : فلان من الجن رب هذا الوادى ، فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله . قال : فيزيدهم ذلك رهقاً ، وهو الفَرَق .

وقال ابن زيد : كان الرجل فى الجاهلية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال: إنى أعوذ بكبير هذا الوادى . فلما جاء الإسلام ، عاذوا بالله وتركوهم . انتهى .

أى : لأن ذلك من الشرك ، ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره . وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة، فإنها للإرشاد لذلك.

روى مسلم [1] عن خولة بنت حكيم قالت : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك .

قال بعضهم : فى الحديث تفسير آية الجن ، وأن ما فيها من الشرك ، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر ، أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

وفى الآية تأويل غريب نقله الرازىّ . وهو أن المراد كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً ، لكن من شر الجن ، مثل أن يقول الرجل : أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى . وأصحاب هذا التأويل ، إنما ذهبوا إليه لأن الرجل اسم الأنس لا اسم الجن . وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً . انتهى.

والضمير المرفوع فى (فزادوهم) . للجن ، على معنى : فزادوهم باستعاذتهم بهم ، غيًّا وإثماً وضلالاً . أو للإنس على معنى : فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوًّا .

و (الرهق) فى الأصل غشيان الشيء ، فخص بما يعرض من الكبر أو الضلال .

---

(١) أخرجه فى مسلم: ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٥٤ و ٥٥ (طبعتنا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا)

[٨] (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)

[٩] (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)

« وَأَنَّهُمْ » أى وأوحى إلىّ أن الجن « ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ » أى فى جاهليتكم « أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا » أى رسولًا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده ومافيه سعادتهم. أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء .

وقيل: الضمير فى (وَأَنَّهُمْ) للإنس، ذهاباً إلى أن قوله (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ) (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا) من كلام الجن ، والخطاب لهم .

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » أى تطلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها « فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا » أى حَفَظَة ورواجم . « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا » أى كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث ، وما يكون فيها، فمن يستمع الآن فيها يجد له شهاب نار قد رصد له .

قال الزمخشرىّ : وفى قوله (مُلِئَتْ) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة . وكذلك قوله (نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب . والآن ملئت المقاعد كلها . وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله ﷺ واستمعوا قراءته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠] (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)

« وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » يعنون

أن ما حدث من منعهم السمع من السماء ، ورجم من استمع منهم بالشهب ، كان يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض ، إما عذاب أو رحمة . أى : حتى علموا بعد باستماعهم القرآن ، أنه لخير أريد بهم ، وذلك بعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق .

قال الناصر : ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل . والمراد بالمريد هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ، كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا)

[١٢] (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا)

[١٣] (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ، فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا)

[١٤] (وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا)

[١٥] (وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

[١٦] (وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا)

[١٧] (لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)

« وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ » أى المسلمون العاملون بطاعة الله « وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ » أى قوم دون ذلك ، وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه ، أو الكافرون « كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا » أى أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى . وهذا بيان للقسمة قبلُ . أى كنا مثلها أو ذويها . و (الطرائق) : جمع طريقة ، وهى طريقة الرجل ومذهبه . و (القدد) الضروب والأجناس المختلفة ، جمع (قدّة) كالقطعة .

« وَأَنَّا ظَنَنَّآ » أى علمنا « أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى إن أراد بنا سوءا « وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا » أى إن طلبنا .

قال الزمخشرىّ : هذه صفة أحوال الجن ، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم ، منهم أخيار وأشرار ، ومقتصدون ، وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ، ولا يُنْجى عنه مهرب .

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ » أى القرآن الذى يهدى إلى الطريق المستقيم « ءَامَنَّا بِهِۦ » أى صدّقنا بأنه حق من عند الله ، « فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا » أى أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها « وَلَا رَهَقًا » أى أن ترهقه ذلّة ، وتلحقه هيأة معذبة موجبة للخسوء والطرد . يعنى : أنه يجزى الجزاء الأوفى ، وتكون له فى العز العاقبة الحسنى . « وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ » أى الكافرون الجائرون عن طريق الحق ، « فَمَنْ أَسْلَمَ » أى أذعن وانقاد « فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا » أى ترجّوا وتوخوا رشداً عظيما ، وقصدوا صواباً واستقامة .

وقوله (فَمَنْ أَسْلَمَ ..) الخ من كلام الله أو الجن . قال الزمخشرىّ : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً ، أن الله تعالى أوعد قاسطيهم ، وما وعد مسلميهم ، وكفى به وعداً أن قال (فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا) فذكر سبب الثواب وموجبه . والله أعدل من أن يعاقب القاسط ، ولا يثيب الراشد . « وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » أى توقد بهم ، كما توقد بكفار الإنس . « وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ » أى الجن أو الإنس أو كلاهما « عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ » أى طريقة الحق والعدل « لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا » أى لوسعنا عليهم الرزق . وإنما تجوز بالماء الغدق ، وهو الكثير ، عما ذكر ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ، ولعزة وجوده بين العرب . أو لأن غيره يعلم منه بالأولى . « لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه . « وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ » أى عبادته أو موعظته « يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا » أى شديداً شاقًّا .

قال الزمخشرىّ : الصعد : مصدر صعد. يقال : صعد صَعَدًا وصعوداً. فوصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب ، أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا)

« وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ » أى مختصة به « فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا » أى فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم فيه التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب . فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع فى دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا)

« وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ » يعنى محمداً ﷺ ، « يَدْعُوهُ » أى يعبد ربه ، « كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » أى جماعات بعضها فوق بعض ، تعجُّباً مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . فالضمير فى (كَادُوا۟) للجن . وقد بيّن ذلك حديث البخارىّ كما تقدم . وجوّز رجوعه للمشركين بمكة . والمعنى: لما قام رسولاً يعبد الله وحده، مخالفاً للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه ، كاد المشركون لتظاهرهم عليه ، وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين ـ حكاه الزمخشرىّ ـ ثم قال : (لِبَدًا) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعض ، ومنها لبدة الأسد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢١] (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا)

« قُلْ » وقرئ (قال) « إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى » أى أعبده ، وأبتهل إليه وحده ، « وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا » أى فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم ، أو إطباقكم على مقتى . « قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » أى لأن ذلك لله تعالى وحده ، فلا تستعجلونى بالعذاب .

قال الشهاب فى توضيح ما للقاضى هنا : إما أن يراد بالرشد النفع ، تعبيراً باسم السبب عن المسبب ، أو يراد بالضرّ الغىّ ، تعبيراً باسم المسبب عن السبب . ويجوز أن يجرد من كل منهما ما ذكر فى الآخر ، فيكون احتباكاً . والتقدير : لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، ولا غيًّا ولا رشداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا)

[٢٣] (إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ، وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)

[٢٤] (حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا)

« قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ » أى إن أراد بى سوءا « وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا » أى ملتجأً إن أهلكنى . وأصله : المدخل من اللحد . وقوله « إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ » استثناء من قوله (لَآ أَمْلِكُ) فإن التبليغ إرشاد ونفع . فهو متصل ، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى لا أملك إلا التبليغ والرسالات ، من معانى

الوحى ، وأحكام الحق . « وَمَن يَعْصِ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فلم يسمع ما جاء به، ولم يقبل ما يبلغه « فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ » أى فى الرسالات الإلهية ، من الظهور عليهم والفتح ، أو العذاب الأخروىّ . « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » أى أجند الرحمن أو إخوان الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا)

[٢٦] (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا)

[٢٧] (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا)

« قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا » أى غاية تطول مدتها. « عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا » أى حرسًا من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم ، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه .

قال القاشانىّ : (رصداً) أى حفظة إما من جهة الله التى إليها وجهه ، فروح القدس والأنوار الملكوتية والربانية . وإما من جهة البدن ، فالملكات الفاضلة والهيآت النورية الحاصلة من هياكل الطاعات والعبادات ، يحفظونه من تخبيط الجن ، وخلط كلامهم من الوساوس والأوهام والخيالات ، بمعارفها اليقينية ، ومعانيها القدسية ، والواردات الغيبية، والكشوف الحقيقية . انتهى .

تنبيه .

قال الزمخشرىّ : يعنى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى .

قال : وفى هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين،

فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله فى السخط . انتهى .

وأجاب أبو السعود بأن معنى الآية : فلا يطلع على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جلية الحال انكشافاً تاماً موجباً لعين اليقين ، أحداً من خلقه ، إلا من ارتضى من رسول . أى إلا رسولاً ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلقة برسالته ، كما يعرب عنه بيان (من ارتضى) بالرسول تعلقاً تاماً ، إما لكونه من مبادئ رسالته بأن يكون معجزة دالة على صحتها ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية التى أمر بها المكلفون ، وكيفيات أعمالهم، وأجزيتها المترتبة عليها فى الآخرة ، وما تتوقف هى عليه من أحوال الآخرة التى من جملتها قيام الساعة والبعث ، وغير ذلك من الأمور الغيبية التى بيانها من وظائف الرسالة . وأما ما لا يتعلق بها على أحد الوجهين من الغيوب ، التى من جملتها قيام الساعة، فلا يظهر عليه أحداً أبدا . على أن بيان وقته يُخلّ بالحكمة التشريعية التى عليها يدور فلك الرسالة . وليس فيه ما يدل على نفى كرامات الأولياء المتعلقة بالكشف . فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم عدم حصول مرتبةٍ ما من تلك المراتب لغيرهم أصلاً ، ولا يدعى أحد لأحد من الأولياء ما فى رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحى الصريح . انتهى

وملخصه تقييد الغيب بما هو معجزة أو من وظائف الرسالة . وهكذا نحا النسفىّ فى الجواب ، مع بيان الفارق وعبارته : أى إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له ، فإنه يطلعه على غيبه ما شاء : و (من رسول) بيان لـ (من ارتضى) . والولىّ إذا أخبر بشيء فظهر ، فهو غير جازم عليه ، ولكنه أخبر بناء على رؤياه ، أو بالفراسة . على أن كل كرامة للولىّ فهى معجزة للرسول . انتهى .

وقال الرازىّ : وعندى أن الآية لا دلالة فيها على شيء مما قالوه ـ يعنى الزمخشرىّ ومن تابعه ـ والذى تدل عليه أن قوله (على غيبه) ليس فيه صيغة عموم ، فيكفى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه ، فنحمله على وقت وقوع القيامة ،

فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد ، فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لايظهر شيئاً من الغيوب لأحد .

قال : والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله: (إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا) يعنى : لاأدرى وقت وقوع القيامة . ثم قال بعده : (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا) أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لايظهره الله لأحد . وبالجملة فقوله : (على غيبه) لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد . فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه .

فإن قيل : فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال : (إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) مع أنه لايظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟

قلنا : بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال[1] (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا) ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة . وأيضاً يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعاً ، كأنه قال: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص ، وهو يوم القيامة ، أحداً . ثم قال بعده : لكن من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن . لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جواباً لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته . اهـ .

وملخصه تخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة بدلالة السياق ، والرسول بالملك .

وناقشه فى العناية بأن المرضىّ حمل الرسول على المتعارف لدلالة السباق والسياق عليه . هذا ، ونقل النسفى عن التأويلات ما مثاله :

قال بعضهم: فى هذه الآية تكذيب المنجمة ، وليس كذلك ، فإن فيهم من يصدق خبره ، وكذلك المتطببة فإنهم يعرفون طبائع النبات ، وذا لايعرف بالتأمل ، فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسولٍ انقطع أثره ، وبقى علمه فى الخلق . انتهى .

وهذا الجواب يلجأ إليه المتفقهة زعماً بأن معرفة مواقيت الكسوف ، وخواص المفردات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٢٥] .

مما يشمله علم الغيب. والصواب عدم شموله لمثله، لأنه مما يتيسر للناس أن يعرفوه بالنظر والاستدلال والتجربة والبحث، كالعلوم الرياضية والطبيعية والزراعية والصنائع والهيئة الفلكية. وبالجملة فكل ما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يكون من الغيب فى شىء. ولذا قال بعض الحكماء: لو كان من وظيفة النبىّ أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية، لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الإنسان ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من كل شىء بالتسليم ، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم. وإن شئت قل: لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه. نعم، إن الأنبياء ينبهون الناس بالإجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل ما يزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه على ما يقوى الإيمان ويزيد فى العبرة . وقد أرشدنا ﷺ إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل إذ قال[1] (أنتم أعلم بأمور دنياكم) انتهى . فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)

« لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ » متعلق بـ (يَسْلُكُ) غاية له . والضمير إما لـ (الرصد) ، وإما لـ (مَنِ ارْتَضَىٰ) . والجمع باعتبار معنى (من) . أى ليبلغوا ، فيظهر متعلق علمه . وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتب الجزاء عليه، والمبالغة فى الحث عليه ، والتحذير عن التفريط فيه . « وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ » أى بما عند الرصد ، أو الرسل عليهم السلام. حال من فاعل (يَسْلُكُ) جىء بها لتحقيق استغنائه تعالى فى العلم بالإبلاغ عما ذكر من سلك الرصد . « وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » أى فردًا فردًا لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه ، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره .

---

(١) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم فى: ٤٣ ـ كتاب الفضائل، حديث ١٤١ (طبعتنا).